العرب
السبت 2020/01/11
السنة 42 العدد 11583

هل تتحول الرواية التاريخية إلى علامة أدبية فارقة

أعمال البوكر تنحاز للتاريخ والجمهور يتمرد على الحاضر

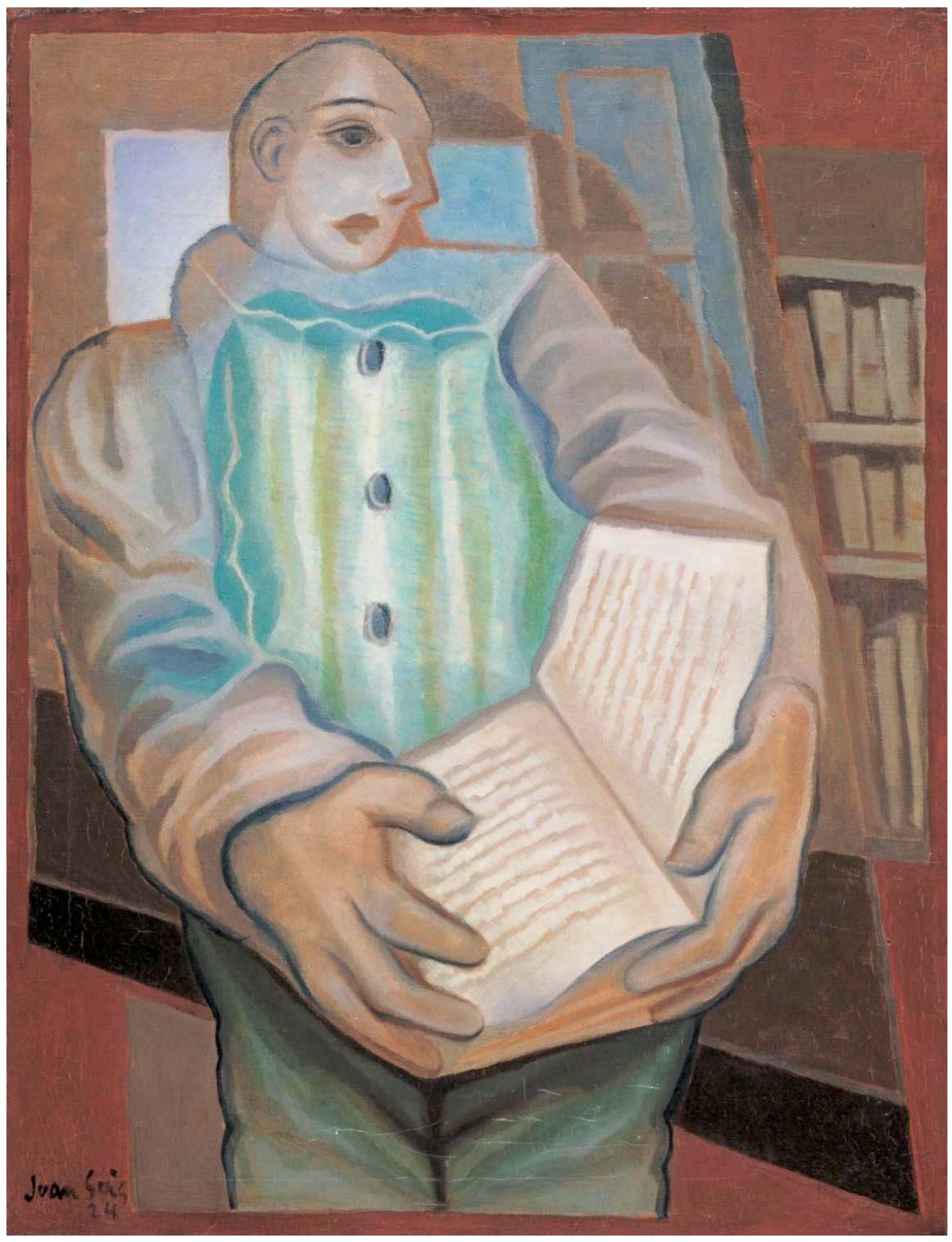

ليست صدفة أن ينبش الروائيون في الماضي

بات من الواضح أن الحكايات أضحت تُمثل ملعبا أساسيا للروائيين العرب، كما تحوز إقبالا واهتماما كبيرين من قبل جمهور القراءة في الوقت الحالي. وقد كشف ناشرون عرب أنه إذا كان هناك إقبال تجاه الروايات في سوق الكتاب العربي في الوقت الحاضر بشكل خاص، فإن هناك توجها أوضح ناحية الروايات ذات الجانب التاريخي، ولا أحد يعلم هل هو توجه ذاتي، أو مدفوع باهتمام بعض الجوائز بهذا الجانب وتشجيع الكتابة فيه.

مصطفى عبيد

القاهرة – كشفت القائمة الطويلة لمسابقة الرواية العربية المعروفة بـ"البوكر" لعام 2020 والتي أعلن عنها قبل أيام، عن تفاعل لجان المُحكمين من نقاد وأكاديميين مع ما اعتبره البعض صعودا للرواية التاريخية أو تلك التي تتناول جوانب من التاريخ، وأضحت بمثابة علامة فارقة أو "ترينـد" أدبي جديد على مستوى العالم العربي.

ومن جهة أخرى لفت الانتباه لهذا الأمر الملف النقدي الواسع الذي نشرته مجلة "الجديد" اللندنية في عددها الصادر في يناير الجاري وخصصته لهذه الظاهرة الأدبية تحت عنوان "الرواية والتاريخ- استلهام التاريخ في الأدب" وشاركت فيه نخبة من النقاد والروائيين العرب.

تداخل الماضي بالحاضر

يؤكد رضا عوض، مدير دار رؤية للنشر بالقاهرة لـ"العرب"، أن جمهور القراء يركز اهتمامه بشكل عام ناحية الكُتب التاريخية والروايات، لذا فإن الرواية ذات البعد الماضوي تُمثل نموذجا لعرض الحُسنيين معا، ما يجعلها مفضلة لدى القارئ العربي.

وإذا كانت القائمة الطويلة للبوكر ضمت 16 عملا روائيا لكتاب من الجزائر، سوريا، العراق، مصر، لبنان، السعودية، المغرب، ليبيا، تونس، فإن 12 عملا منها تتعرض أحداثها للماضي سواء القريب أو البعيد.

ربما كانت رواية "فردقان" للأديب المصري يوسف زيدان، الأكثر إيغالا في الماضي إذ تقدم حكاية الطبيب والفيلسوف العربي الشهير ابن سينا (980 -1037م) لرسم تاريخ مشابه لحاضرنا بتعصبه وإنغلاقه وتحولاته السياسية.

ويعود الروائي الجزائري عبدالوهاب عيساوي في روايته "الديوان الإسبارطي" إلى ماض عمره نحو قرنين من الزمان، ليُقدم لنا أجواء المجتمع الجزائري على مشارف الاحتلال الفرنسي سنة 1830.

أما الروائية المصرية رشا عدلي، فتعود في روايتها "آخر أيام الباشا" إلى السنوات الأخيرة من زمن محمد علي باشا والي مصر، لتقدم استعراضا للمجتمعين المصري والفرنسي من خلال قصة مبعوث يرسل به الباشا إلى باريس حاملا زرافة هدية للملك.

كما يقدم الروائي السعودي مقبول العلوي في روايته "سفر بارلك" السنوات الأخيرة في عمر الدولة العثمانية، بينما يستعرض الروائي التونسي محمد عيسى المؤدب في روايته "حمام الذهب" التاريخ القريب للأقلية اليهودية في تونس خلال الحرب العالمية الثانية.

وبشكل مشابه يُقدم لنا الروائي السوري سليم بركات، جانبا من تاريخ الطائفة اليهودية عقب هزيمة يونيو 1967 في روايته "ماذا عن السيدة اليهودية راحيل".

هناك روايات في القائمة تقدم تاريخا قريبا مثل "حطب سراييفو" للجزائري سعيد خطيبي، و"الحي الروسي" للسوري خليل الرز.

ويختلط التاريخ بالحاضر في أعمال أخرى من القائمة الطويلة مثل "حرب الغزالة" للروائية الليبية عائشة إبراهيم، و"رباط المتنبي" للمغربي حسن أوريد، و"لم يُصل عليهم أحد" للسوري خالد خليفة، و"ملك الهند" للبناني جبور الدويهي.

يُفسر البعض من الروائيين غلبة الجانب التاريخي على الأعمال المرشحة للفوز في القائمة الطويلة للبوكر العربية، باهتمام لجان التحكيم بالجهد البحثي المبذول إلى جانب العمل الإبداعي.

ويقول الروائي المصري أحمد عبدالمجيد، لـ"العرب"، إنه يتصور أن لجان تحكيم الجوائز الأدبية في العالم العربي تضم في الغالب أكاديميين، وهؤلاء يُقدرون الجهد البحثي ويعتبرونه إضافة إلى المبدع، ويرون أن ذلك الجهد يستحق التكريم.

ويؤكد أن السنوات الأخيرة شهدت اهتماما من قبل لجان تحكيم الجوائز بروايات السير باعتبارها تحتوي على جهد بحثي من قبل المبدعين، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى الالتفات بشكل أكبر ناحية الروايات التاريخية.

حقل للتجارب

يشدد الروائي السوداني حامد الناظر، الذي سبق أن وصلت رواياته "نبوءة السقا" و"الطاووس الأسود" إلى القائمة الطويلة للبوكر العربية عامي 2016 و2018، على أنه لا غرابة في أن الكثير من الكتاب لجأوا إلى الرواية التاريخية أو ما بات يعرف بالتخيل التاريخي لمعالجة موضوعات متصلة بالحاضر مثل العنف والإرهاب والانتهازية والعنصرية والدين وغيرها.

ويلفت إلى أن لهذا اللجوء مبرراته الفنية أكثر من أي شيء آخر، فالتاريخ حقل فسيح للتجريب والترميز وإطلاق الأخيلة، كما أن اللجوء إلى التاريخ يبعد الكاتب عن سهام المحاكمات الانطباعية التي تحيل الشخوص والأمكنة والأحداث إلى المطابقات العبثية مع الواقع، قائلا "التخيل حيلة جيدة للافلات من آلة القمع المعنوية التي تراقب الأفكار".

ويُفسر بعض النقاد وجود "ترينـد" في الرواية العربية الحديثة يستدعي التاريخ بأنه نتاج طبيعي لمرحلة انسداد الأفق ومرحلة البحث عن حلول قديمة لواقع من القمع الفكري.

> السنوات الأخيرة تشهد اهتماما من قبل لجان تحكيم الجوائز بروايات السير باعتبارها تحتوي جهدا بحثيا من المبدعين

ويقول الناقد الأدبي الدكتور أيمن حماد، إن لجوء كثير من المبدعين العرب للرواية التاريخية يتسع بسبب ما يعتبر صعوبة التصريح والحكي عن الظلم والقهر المعاصر.

وعرفت الرواية العربية في أزمنة عديدة ذلك التوجه، مثلما قدم الروائي المصري الراحل جمال الغيطاني شخصية "الزيني بركات"، رجل الأمن العتيد في رواية حملت العنوان نفسه، ليُحاكم بها الدولة البوليسية القائمة في عهد جمال عبدالناصر.

يرى آخرون أن اتساع مساحات الرواية التاريخية يُمثل ردة فعل طبيعية لمرحلة من مراحل الإبداع، حاولت استقراء المستقبل ورسم توقعات التطور التكنولوجي وآثاره على الحياة الإنسانية.

وفي تصور هؤلاء، أن التطور له جانب سلبي يتمثل في ازدراء الماضي، ما يدفع البعض إلى الانغماس أكثر في الأحداث الماضوية كرد فعل مقاوم لذلك.

ويوضح الكاتب والقاص علي حامد، أن البحث عن الزمن المنقضي سمة واضحة في عالم القراءة لدى أجيال ما بعد الألفية الثالثة.

وتثير قضية تفاعل لجان تحكيم الروايات العربية مع الاتجاه الشائع للرواية التاريخية خلافا داخل الأوساط الأدبية، بسبب نظرة البعض لها باعتبارها رواية غير أصيلة أو رواية تندرج ضمن الفئة الثانية.

ويعتبر الروائي المصري حمدي الجزار، أن الرواية ذات الشخصيات والأحداث التاريخية ليست إبداعا من الدرجة الأولى، لأن الكاتب هنا يعتمد على شخصيات من الواقع، ما يجعل القارئ ليس حرا في التلقي عند الحديث عن شخصيات مثل جمال عبدالناصر، محمد علي ، أو حتى الملك رمسيس.

ويضيف، أن حرية الكاتب في هذه الأعمال ليست مطلقة، فهو مقيد بشخصية وحادثة وكل ما يستطيع إضافته هو جانب حواري أو تفصيلي، ما يجعله أقرب للمؤرخ.

ويتابع قائلا "الرواية هنا ليست قصة متخيلة، وإنما هي قصة تدعي التعبير عن الواقع، وليست هذه هي القيمة الأساسية للعمل الفني، لكن القيمة الأساسية تتمثل في تقديم عالم متخيل، وفي هذا العمل فإن الروائي لا يدعي أنه يقدم الحقيقة وإنما يقدم عملا فنيا جماليا ولا يهمه إن كان ما يقدمه حدث بالفعل أم لا، بل الأفضل ألا يكون قد حدث".

وتهتم بعض لجان الجوائز بالمحتوى المعرفي أكثر من اهتمامها بالعمل الجمالي، وهذا ليس إعلاء للأدب وتشجيعا للإبداع الحُر، لأننا لو كنا في حاجة لمحتوى معرفي عن الحيتان، مثلا فإننا يمكن أن نحصل عليه من قناة أو مجلة ناشيونال جيوغرافيك، بدلا من قراءة رواية طويلة جدا وثرية معرفيا مثل رواية "موبي ديك" للروائي الأميركي هيرمان ملفل.

وفي تصور حمدي الجزار، أن الأدب الغربي الآن يفرق تماما بين العمل المتخيل والعمل غير المتخيل، من حيث التصنيف أو الجوائز أو التقييم، وهو ما نحتاج إليه في الساحة الأدبية العربية بشكل مُلح.

المكان الأول وأثره على توجهات الإنسان

حميد سعيد
كاتب عراقي

المكان الأول، هو المكان الذي يولد الإنسان بين رحابه، ويعيش فيه زمن نشأته، ولمكوّنات هذا المكان، الاجتماعية والثقافية، أثر في توجّهات الإنسان وفي سلوكه ورغباته وطاقاته ومواهبه، وحين تظهر موهبة الإنسان سواء في ما هو عملي أم فكري أم إبداعي، يكون البحث، بل الحفر في أثر المكان الأول بجميع مكوّناته، على تلك الموهبة، نوعها وتحوّلاتها.

وأستذكر مع المكان الأول، بيتين شعريين ساحرين وشائعين، ينسبان إلى صبية طائية، والبيتان من الشعر العربي قبل الإسلام:

أحبّ بلاد الله ما بين منعجٍ/ إليَّ
وسلمى أنْ يصوب سحابها
بلادٌ بها نيطت عليَّ تمائمي/ وأول
أرضٍ مسَّ جلدي ترابُها

وعلى صعيد تجربتي الذاتية، ومنذ أن كتبت الشعر، وعرفتُ شاعراً، وجدت أن كل من يحاورني أو يكتب عن تجربتي الثقافية بعامة والشعرية على وجه خاص، يسألني عن المكان الأول، مدينتي "الحلة" وعن طفولتي وصباي وشبابي فيها، باحثاً عن أثر المكان الأول في هذه التجربة، بل تأثيره في مكوّناتي الثقافية والاجتماعية.

ولا بد من أن أعترف هنا، أن مدينتي الحلة التي لم تفارقني حتى حين فارقتها، كانت وما زالت ذات أثر واضح في حياتي وتوجهاتي ومكوّناتي الشخصية، وحين أتحدث عنها، مسقط رأس، وحاضنة طفولة وصبا، وفضاء للحياة، جغرافيا واجتماعيا، أجدها حيث كانت علاقتي بالشعر، هاجسا ومن ثم وعيا.

عاشت هذه المدينة تاريخين، فهي بابل القديمة أولا، وهي الحلة المزيدية ثانيا، التي تبوأت موقع حاضرة الثقافة العربية الإسلامية بعد أن دمر المغول بغداد، كياناً ودورا، وبتأثير هذين التاريخين، كان الإنسان فيها، متحضرا ومدينيا، حتى وهو لا يعرف القراءة والكتابة،أو هو على تماس بالريف والانتساب إليه، بصلات النسب والقربى أو المصالح المشتركة وأسباب العيش، فمحيط المدينة الريفي، من أكثر المناطق الزراعية غنىً، وتكاد المدينة أن تعيش على علاقتها الاقتصادية به.

وكان المحيط الريفي، وبخاصة في أوساط المزارعين، غير بعيد عن حياة المدينة بحيويتها الثقافية وتطلعاتها الحضارية، ولأنني أتحدث عن الحلة في أواخر الأربعينات والعقد الخمسيني من القرن العشرين، فقد شهدت هذه الأعوام والتي سبقتها، أن يكمل أبناء كبار المزارعين دراستهم الجامعية في عدد من الجامعات في البلدان العربية كجامعة القاهرة والجامعة الأميركية في بيروت، أو في جامعات أجنبية، في بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الأميركية، وأن تقبل فتيات من أسر المدينة على إكمال دراستهن الجامعية قبل أن تؤسس جامعة بغداد.

قبل ذلك التاريخ وخلاله أيضاً، كانت المدينة وبتأثير قربها من بغداد، تنفتح على كل ما هو مديني، حيث دور السينما ونوادي الموظفين، بل لقد كان فيها عدد من المكتبات التي تستورد أحدث الكتب من بيروت والقاهرة ودمشق، وما يصدر في بغداد والنجف منها، وكذلك المجلات الثقافية والسياسية والفنية، وتضم إحدى هذه المكتبات مطبعة حديثة، والشارع الذي توزعت على جانبيه تلك المكتبات، ما زال رغم جميع المتغيرات يسمى شارع المكتبات.

وفي النصف الأول من الأربعينات أقيم في المدينة مبنى لمسرح حديث مرتبط بالإدارة المحلية، ولعلها المدينة الوحيدة التي كانت فيها أيامذاك حديقة عامة للنساء.

يمر بمدينة الحلة نهر، هو فرع من نهر الفرات، اسمه شط الحلة، يقسمها إلى قسمين، هما الجانب الكبير الذي يضم دوائر الدولة والأسواق الرئيسة ومعظم مقومات المدينة، والجانب الصغير المحاط بالريف من جميع جوانبه، باستثناء إطلالته على النهر، وقد ولدت وعشت طفولتي وأنهيت دراستي الابتدائية في هذا الجانب من المدينة.

وحين أستعيد تلك السنوات، أجد أن كل ما فيها يقترب بالطفل من الهاجس الشعري.

ومما لا أنساه، ذلك الرجل الأعمى الذي كان يأتي بين الحين والحين إلى السوق ويردد مواويل دينية، فيمنحه أصحاب الدكاكين عطاياهم، وما زلت إلى الآن أحفظ بعض مواويله.

وللموت طقوسه، فحين يكون المتوفى من وجهاء الريف أو من شيوخ العشائر.

أما في المناسبات الاجتماعية التي تدخل ضمن مواسم الفرح، كالأعياد والأعراس وحفلات الختان أو يختم الصبي القرآن الكريم، فلكل مناسبة من هذه المناسبات أهازيجها وأغانيها، ولها من يؤديها من الرجال والنساء، هواة ومحترفين.

> مدينة الحلة العراقية عاشت تاريخين، فهي بابل القديمة أولاً، وهي الحلة المزيدية ثانياً، ولها مكانة ثقافية بارزة

إن كل هذا الذي ذكرته، عرفته في طفولتي واستأثر بأحاسيسي وحفظت الكثير منه، وحين عرفت الكتابة، أقدمت على كتابة الكثير مما كنت أحفظ أو أستمع إليه.

لم تكن قراءاتي منظمة أو موجهة، بل طالما تحكمت بها المصادفة، ولم أكن في محيط معني بأسئلتي أو ما تخلقه عندي الدهشة والمفاجأة والصدمة، فقد كان عليَّ أن أكتشف الأشياء بنفسي وأن أحاول الإجابة عن تلك الأسئلة، وعلى سبيل المثال، ما وجدته في لغة الرومانسيين الشعرية أو جماليات المهجريين، وبخاصة جبران ونعيمة، ومن ثم مفاجأة البنية الشعرية الجديدة التي اكتشفتها في نصوص السياب الخمسينية، أكثر مما عند غيره من المجددين، إذ كانت المفاجأة معه أكثر مما كانت مع غيره، ولقد كان عليَّ أن أنتظر طويلا حتى ألتقي بمن أستطيع مشاركتهم في أسئلتي.

إن الحوار الذي سبق في تجربتي، الحوار مع الآخر، بقدر ما جعلني أكتشف الأشياء متأخرة نسبياً، منحني نظرة أعمق في كل ما يتعلق بالوعي فكريا وجماليا، وتلك البذرة ما زالت تحمل خصوصيتها، إذ ما زالت خارج مؤثرات الضجيج وما زلتُ أوفر لنصي الإبداعي ما يمنحه خصوصيته.

مكان يختزن حضارات عريقة